الولاء الطائفي في الحركة المسكونية

الأب جورج فلوروفسكي

نقلته إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

يعود هذا النص إلى سنة ١٩٥٠. بعد قرابة ثلاثة أرباع قرن من العمل المسكوني، تراجعت الأمور بدل أن تتحسّن. لم تعد المسكونية حكراً على المنخرطين رسمياً في المؤسسات المسكونية. في الماضي، اعتقد الكثيرون أن المشكلة تكمنُ في العمل المسكوني. لكنه من الواضح اليوم أنّ المشكلة تكمنُ في الأرثوذكس. لقد كثُر الذين يصرّحون بأن إيمان الكنيسة الأرثوذكسية هو واحد من الطرق، وأنه نسبي ورَجعي وينبغي تحديثه. ليس الكلام عن الولاء والإخلاص للأرثوذكسية صعباً وحسب، بل ويعتبره الكثيرون خطيئة وتعصباً. لهذا فإن كلام فلوروفسكي عن أن الكنيسة الأرثوذكسية هي **الكنيسة** [بأل التعريف]، وكلامه عن الولاء لها، يحملان أهمية خاصة، فهو زعيم اللاهوتيين الأرثوذكس في القرن العشرين، وهو الذي ساهم في إنشاء مجلس الكنائس العالمي، وخير مَن مثّل الأرثوذكس في الحوار المسكوني.

هذ النص مقتطَع من فصل كامل يحمل العنوان نفسه، نُشِرَ أولاً في "The Student World"† وهي دورية يصدرها الاتحاد العالمي للطلاب المسيحيين، وأعيد طبعه عدة مرات. ظهر مؤخراً من جديد في كتاب عن فكر الأب فلوروفسكي، صدر في ٢٠١٩‡. [المترجم]

...

إن الحركة المسكونية، كمحاولةٍ للتغلب على الانقسام المسيحي وعلاجِه، هي مغامرة متناقضة لا مفرّ منها. الهدف النهائي هو في الواقع توحيد المسيحية. ومع ذلك، فإن طبيعة ونطاق هذه الوحدة والتوحيد المرتقبين يتم وصفهما وتفسيرهما بشكل مختلف من قِبَل المسيحيين أصحاب الخلفيات والتقاليد المختلفة. تعتمد طريقة لمّ الشمل في نهاية المطاف على المفهوم الذي يحمله المرء عن الانفصال الحالي. وهذه المفاهيم تختلف تماماً. تعتمد الوصفة الطبية دائماً على التشخيص. وفي حالتنا، فإن التشخيص بالتحديد غير مؤكد ومثير للجدل. هذا هو السبب في صعوبة الاتفاق على الوصفة الطبية. تم اقتراح العديد من الحلول. بشكل تقريبي، يمكن وصف مجموعة واحدة من الحلول بأنها "نظرية القاسم المشترك" والأخرى باسم "الكنيسة الحقيقية والانفصال".

القاسم المشترك

ترقى نظرية "القاسم المشترك"، في الممارسة العملية، إلى توصيةٍ للتصرف كما لو أنه ليس هناك انقسام حقيقي، ولا قطيعة حقيقية، بل مجرد سوء فهم محزن، يمكن تسويته باتفاق ما. إن المسيحيين منقسمون ومتغرّبون عن بعضهم البعض، لا أحد يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة المروعة. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل الانقسامات والانفصالات المؤسفة، إلا أنهم متحدون في العديد من النقاط الأساسية. إنهم متحدون في ولائهم

المشترك لنفس الرب. يمكن للمرء أن يضيف، قبل كل شيء، أنهم متحدون في مشيئته الخلاصية ومحبته. لقد جاء [الرب] بالتحديد لاسترداد الخراف الضالة والمشتتة. من هذا المنظور، لا يبدو من المعقول أن نتجاهل الخلافات والاختلافات القائمة وأن نتصرف كما لو أن جميع المسيحيين في حالة وحدة. أليست كل هذه الخلافات إنسانية تماماً - مفاهيم بشرية خاطئة - والوحدة هي هبة إلهية تمّ منحها مجاناً بالفعل بيسوع المسيح، رب كل جسد؟ عند هذه النقطة بالتحديد تبرز مشكلة ما يوصف عادة بـ "المناولة المفتوحة"، ويظهر الشعور بمأزق الانقسام بأشد قدر من الأسى والألم. يبدو أنها فضيحة مخزية أن الذين يعلنون ولاءهم المشترك ليسوع المسيح، ابن الله الحي ومخلص العالم، الأمل الوحيد الأكيد في العصور الماضية والقادمة، لا يزالون غير قادرين على الالتقاء معاً على مائدته. أسوأ بكثير من ذلك، أن جزءاً كبيراً منهم يرفض بشكل قاطع القيام بذلك. إن أبطال الحل السهل مكتئبون تماماً مما يبدو لهم أنه تشبّث ونقص في المحبة والتفهّم الأخوي. يبدو لهم أن هذه المقاومة العنيدة قد تفسد المسعى المسكونيّ برمته.

الآن، من وجهة نظر أخرى، ليس المسعى المسكوني هو الذي تحطّم بسبب اقتراح "المناولة المفتوحة"، بل مجرد تفسير محدد له. في الواقع، تصل نظرية القاسم المشترك برمتها إلى طريق مسدود، لأنها لا تحمل قناعة مُجمَعاً عليها. تشير هذه الحقيقة في حد ذاتها إلى أنه ربما هناك مبالغة في مقياس الوحدة أو الاتفاق الحالي وإساءة فهم لهذا الاتفاق. إنها تشير إلى أن الانقسام ربما أعمق بكثير مما اعترف به الذين كانوا على استعداد للعمل معاً. إنه لأمر مروع حقاً ألا يتمكن المسيحيون من الانضمام معاً على نفس المذبح. لكنَّ هذا هو بالضبط ما كان ينبغي توقعه. لأنهم حقاً منقسمون. إن خِدَم الشركة العديدة والمنفصلة (أي أن تقيم كل جماعة قداسها منفصلاً:المترجم) في اجتماع مسكوني ليست سوى إسقاط مذهل لحقيقة الانشقاق. ولا يمكن التغلب على الانقسام ببساطة من خلال الاتفاقات على المستوى البشري. يجب أن يكون المرء شجاعاً بما يكفي لتحمل الألم، وأولئك الذين يجبرهم ضميرهم على الامتناع عن أي "مناولة مشترَكة" يعانون، ليس أقل، ولكن ربما أكثر بكثير، من الذين هم على استعداد للمشاركة.

[هنا في النص الأصلي عدة مقاطع قد اقتُطِعَت عن قصد، إذ يناقش فيها الأب جورج فلوروفسكي علامات الكنيسة والمناولة المشتركة، مركّزاً على نظرة الكثلكة وتأثيرها، ما هو مطروح في الأوساط المسكونية. الواقع أن هذه المناقشة كانت في محلها قبل مجمع الفاتيكان الثاني ولكنها لم تعد تستقيم بعدَه. فنظرة الكثلكة إلى الكنيسة والعمل المسكوني تغيّرت أكثر من تسعين درجة، فيما نسبة التغير في النظرة إلى المناولة كانت أكبر : المترجم]

البحث عن زمالة

تكمن مأساة العالم المسيحي تحديداً في أن حقيقة الله لا تزال متباينة. ما هو كنز مقدس بالنسبة للبعض، هو خرافة يرثى لها بالنسبة للآخرين. ما هو تقدم في نظر جزء من العالم المسيحي هو ضلال في قناعة الجزء الآخر. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل ذلك، يجب على جميع المسيحيين ضمن الحركة المسكونية وخارج حدودها الفعلية أن يتعهدوا بالبقاء معاً والإعلان عن ولائهم المشترك لنفس الربّ والسيد. إنه وضع متناقض

بالتأكيد. ومع ذلك، فإن هذا التناقض هو بالضبط ما يجعل التعهد قيّماً وواعداً للغاية. يجب أن يبقوا معاً، بالضبط لأنهم منقسمون. الوعد ثمين لأنه ينطوي على الألم والتوتر. لقد أعطينا صليب الصبر لنحمله. فلنفتخر بهذا الصليب. إن آلامنا المسيحية هي علامة على الشفاء، شفاء سيأتي من الرب.

الحركة المسكونية هي في الأساس شركةٌ بحثٍ. إنها مشروع أو مغامرة وليست إنجازاً. إنها طريقة وليست الهدف. وبالتالي، فإن المناولة المشتركة من شأنها أن تقوض المسعى برمته. سيكون من التزوير إظهار أن العالم المسيحي قد تمّ لمّ شمله بالفعل. نحن نعلم جيداً أن ذلك لم يحدث. لا يزال التوتر قائماً، مما يجبرنا على المضي قدماً. لهذا السبب لا يزال لدينا حركة مسكونية فقط وليس مسيحيةٌ أُعيدَ توحيدها. صحيح أنه تمّ اكتشاف بعض الاتفاقات غير المتوقعة وتم التوصل إليها مؤخراً، وهذا بالتحديد من ضمن عملية البحث المشترك. لا ينبغي إنكار أي عمل غير ناضج وغير مبرر، خاصةً أن بعض شركاء هذا الخطاب لن يشاركوا فيه بضمير حي. لا تزال أمامنا رحلة طويلة وخطيرة.

قيل مؤخراً أن هناك في الحوار المسكوني اتجاهٌ معين لتأجيل الاتفاقات، حتى عندما كانت ممكنة؛ بمجرد أن كان يبدو اتفاق على نقطة معينة مُحتَّماً وفي متناول اليد، كان يتمّ تغيير الموضوع عن عمد وطرح موضوع آخر مثير للجدل إلى حد كبير في المناقشة. قد تكون هذه مبالغة. لكن ما هو صحيح هو أننا في الخطاب المسكوني لا نثق باتفاقياتنا الأكثر إلزاماً. نحن نتصرف مرة أخرى بأكثر الطرق تناقضاً. نحن لا نثق في أنفسنا لأن نظرتنا إلى السر الذي نناقشه أكثر عمقاً ، فيما ندرك الاختلاف النهائي الذي لا يمكننا أو ربما نخجل من ذكره أو وصفه.

قد يكون الميل المعاكس هو الأكثر انتشاراً. هناك ميل لدعوة الخصوم أو حتى إجبارهم على التفكير في مقولات غير مألوفة لديهم أو غريبة عليهم. سيكتب عالم اللاهوت "البروتستانتي" كتبه ويدلي بتصريحاته بلغته الخاصة وبشكل أساسي من أجل تثقيفه الشخصي، ويتوقع أن يتبع "الكاثوليك" حجته. عادة ما يساء فهمه، ببساطة لأن شريكه في المحادثة يفشل تماماً في اتباع أسلوبه الخاص في الكلام. عادة ما يفعل "الكاثوليكي" الشيء نفسه، وسيتهم كل منهما الآخر بالتصور الخاطئ وسوء الفهم. من الواضح أن اللوم يقع على كلا الجانبين. علينا أن نتعلم تعابير بعضنا البعض، أو بالأحرى علينا أن نخلق لغة مسكونية حقيقية ومشتركة في اللاهوت وربما أن ننسى تعابير جماعتنا. إنها مهمة جسيمة. ومع ذلك لا يمكننا الهروب منها. علينا أن نماثل أنفسنا عقلياً مع الشركاء في الخطاب الذين لا يشاركوننا قناعاتنا، إذا أردنا الوصول إلى أي مكان. لا ينبغي محاولة التعبير عن القناعة "الكاثوليكية" في مصطلح "البروتستانت" ولا دعوتهم للتحدث إلينا بلغتنا الخاصة. ما يُنظر إليه غالباً على أنه ولاء طائفي قد يثبت أنه صياغة غير مناسبة لحقيقة مقبولة بشكل عام.

الكنيسة الحقيقية

هذه الورقة هي محاولةٌ للكتابة بلغة مسكونية جديدة. قد لا تكون المحاولة ناجحة. ربما يكتشف البعض فيها نكهة طائفية ثقيلة، وسيشتكي آخرون من الغموض فيها. ولذا قد يكون في محله أن ألخص بإيجاز مضامين

حديثي الرئيسية بلغة آلفها. بصفتي عضواً وكاهناً في الكنيسة الأرثوذكسية، أؤمن أن الكنيسة التي اعتمدتُ وتربيتُ فيها هي في الحقيقة الكنيسة، أي الكنيسة الحقيقية والكنيسة الوحيدة الحقيقية. أؤمن بذلك لأسباب عديدة: بالاقتناع الشخصي والشهادة الداخلية للروح الذي يتنفس في أسرار الكنيسة وبكل ما يمكنني تعلّمه من الكتاب المقدس ومن تقليد الكنيسة الكوني. لذلك أجد نفسي مضطراً إلى اعتبار جميع الكنائس المسيحية الأخرى ناقصة، وفي كثير من الحالات يمكنني تحديد أوجه القصور هذه بما يكفي من الدقة. لذلك، بالنسبة لي، إنّ لمّ الشمل المسيحي هو مجرد اهتداء عالمي إلى الأرثوذكسية. ما لديّ ليس ولاءً طائفياً إنما ولائي هو فقط إلى "واحدة مقدسة (Una Sancta)".

أعلم جيداً أن مسيحيين كثيرين سوف يتنكّرون لادعائي. سيبدو ادعائي متعجرفاً وعديم الجدوى. أعلم جيداً أن العديد من الأمور التي أؤمن بها بقناعة قصوى وتامة لا يصدقها الآخرون. الآن، لا أرى أيّ سبب لأن أشك شخصياً بهذه الأمور أو لا أصدّقها. كل ما يمكنني فعله بشكل معقول هو هذا: إعلان إيماني ومحاولة صياغته بطريقة وبأسلوب لا يسمح لمصطلحاتي الرديئة أن تحجب الحقيقة. ذلك لأني متأكد من أن حقيقة الله تحمل الاقتناع. هذا لا يعني أنه ينبغي مساواة كل ما في ماضي الكنيسة الأرثوذكسية أو حاضرها بحقيقة الله. من الواضح أن أموراً كثيرة قابلة للتغيير؛ لا بل في الواقع أشياء كثيرة تحتاج إلى تحسين. الكنيسة الحقيقية ليست بعدُ الكنيسة الكاملة.

يجب أن تنمو كنيسة المسيح وأن تُبنى في التاريخ. ومع ذلك، فقد تمّ بالفعل تسليم الحقيقة الكاملة بكاملها إلى الكنيسة. إن المراجعة وإعادة الصياغة ممكنتان دائماً، وأحياناً ضروريتان. إن كل تاريخ المجامع المسكونية في الماضي دليل على ذلك. لقد شارك آباء الكنيسة القديسون في هذه المهمة. ومع ذلك، على العموم، تمّ حفظ الوديعة بأمانة وكانت شهادة الإيمان تكتسب الدقة والإحكام. فوق كل شيء، حُفظَت البنية الأسرارية للجسد متكاملة وسليمة. مرة أخرى، أعلم أن هذه القناعة قد تُرفَض على أنها وهم. بالنسبة لي هي مسألة دليل. فإن كان هذا تشبثاً فهو عناد الدليل. لا أستطيع إلا أن أرى ما أراه بالفعل. لا استطيع تغيير الواقع. لكنني لن أصل إلى استئصال أي شخص من الكنيسة على الإطلاق. الدينونة قد أُعطيت للابن. لا يحق لأحد أن يستبق حكمه. ومع هذا فللكنيسة سلطتها الخاصة في التاريخ. إنها، أولاً وقبل كل شيء، سلطة للتعليم والحفاظ بأمانة على كلمة الحق. هناك قاعدة معينة للإيمان والنظام يجب اعتبارها طبيعية. ما هو أبعد من ذلك هو غير طبيعي وحسب. لكن يجب معالجة الشذوذ، وليس إدانته فقط. وهذا ما يبرر مشاركة أرثوذكسي في الخطاب المسكوني، على أمل أن يكسب من خلال شهادته قلوب البشر وعقولهم.

† George Florovsky. Confessional Loyalty in the Ecumenical Movement. The Student World , 43, no. 1 (1950): 59–70.

‡ "The Patristic Witness of Georges Florovsky: Essential Theological Writings". Edited by Brandon Gallaher and Paul Ladouceur. Preface by Metropolitan Kallistos Ware. T&T CLARK. Bloomsbury Publishing Plc. London. 2019. pp. 279-288.